أرض المعجزات

ليل الجزيرة

الفجر الصادق

وراء الأسوار

المعركة الكبرى

وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء

ثورة فى الصحراء

ليل الجزيرة

مرّت عليها القرون الطوال وهي قاحلة مجدبة ، رهيبة مرهوبة ، يحوم حولها الخيال ثم يرتد عنها فزعاً مذعوراً . لا يكاد يميز بين صفير الريح فيها وبين عُواء الوحوش وعزيف الجان .

قال « ذو الرُّمَّة »[1] :

ورمل لعــزفِ الجنّ في عقداته
هزيزٌ كتَضراب المغنّين بالطبل

وقال « جِرانُ العَوْد النُّمَيْري »[2] :

حملن جِران العود حتى وضعْنه
بعلياءَ في أرجائها الجِنُّ تَعْزِفُ
وقلن : تمتعْ ليلة النــأيِ هذه
فإنك مرجومٌ غداً أو مُسَيَّفُ

---

(١) ذو الرمة : غيلان بن عقبة ، الشاعر الإسلامي البدوي ، وأحد عشاق العرب المشهورين .

(٢) جران العود النميري : الشاعر ، عامر بن الحارث ، له ديوان مطبوع في دار الكتب .

وعكف السُّمَّار فى بوادى الجزيرة ينسجون من تهاويل الخيال أساطير مثيرة مروعة ، عن أفاعيل الجن وألاعيب الغيلان. كما راح الشعراء يهيمون وراء الرؤى العجيبة ، مع توابعَ زعموا أنها تُلِمّ بهم من وادى الجن فى مجاهل القفر ، فتأتيهم بروائع النغم وعبقرىّ القصيد.

قال شاعرهم :

إنى وإن كنت صغيرَ السن ... وكان فى العين نُبُوٌّ عنى
فإنّ شيطانى أميرُ الجنّ ... يذهب بى فى الشعر كلّ فن

وقال «حسّانُ بنُ ثابت»[١] :

ولى صاحبٌ من بنى الشيصبا ... ن ، فطوراً أقول وطوراً هُوَه

وقال «أبو النَّجْم»[٢] :

إنى وكل ساحر من البشَرْ ... شيطانُه أنثى وشيطانى ذَكَرْ

* * *

وكذلك مضوا يرهبون القفر ، ويتجنبون السير فى تلك الصحراء الموحشة ، إلا أن تدفعهم إليها ضرورات العيش ،

---

(١) حسان بن ثابت : الخزرجى الأنصارى المخضرم ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) أبو النجم : الفضل بن قدامة ، شاعر راجز ، أموى .

حيث يتلمسون مواقع أقدامهم على حذر . وهم يستعيذون بمن فيها من الجن :

قــد استعذنا بعظيم الوادى ... من شرّ من فيه من العوادى

على أن منهم من كان يستميل الجنّ إليه ثم يثوب إلى قومه يتحدث بالذى كان بينه وبينها من مواقف وصلات .

وللشاعر الصعلوك «تأبط شرًّا»(١) مغامرات مع الجن معروفة .

وقال شاعر منهم يصف جنًّا نزلوا به وهو يوقد لطعامه ، فدعاهم إلى الأكل فلم يلبوا الدعوة :

أتوا نارى فقلتُ : منون ؟ قالوا : ... سراة الجن . قلت : عموا ظلاما!

وقلت : إلى الطعام . فقال منهم ... زعيم : نحسد الإنس الطعاما

لقد فُضلتم بالأكل فينــا ... ولكن ذاك يُعقبكم سقاما

بل إن منهم من زعمَ أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن :

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد

ألذ وأشهى من ركوب الأرانب !

وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبور بعض موتاهم ، وتمثلت

---

(١) تأبط شراً : ثابت بن جابر ، شاعر جاهلى من الصعاليك انظر (الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمفضليات للضبى) .

لهم الأحجار في الفلاة، صوراً وأشباحاً من الجان .
نقل « أبو عبيدة ، معمر بن المثنى »[١] عن رجل من بني طيء أنه قال :

« رأيت قبر حاتم الطائي[٢] ببقة[٣]، وهو جبل له واد يقال له الحابل وإذا قدور عظيمة من أحجار مكفآت ناحية من القبر ، وهي من التي كان حاتم يطعم فيها — يعني الناس — وعن يمين قبره أربعُ جوارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك ، ولهن شعور منشورة كالنائحات عليه ، لم يُرَ مثلُ بياض أجسامهن وجمال وجوههن ! مثَّلَتْهن الجن على قبره فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يسكنَّ . . . قال : وربما مرَّ المارُّ فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً » .

كما حدثوا عن «محمد بن أبي هريرة» أنه قال :

---

(١) أبو عبيدة : معمر بن المثنى التيمي ، من أئمة علماء اللغة في القرن الثاني . (نزهة الألبا ١٣٧ — أخبار النحويين ٥١ ، ٦٧) .

(٢) حاتم الطائي : بن عبد الله بن سعد . الشاعر الجواد المشهور في الجاهلية . راجع (الشعر والشعراء ١٢٣) .

(٣) بقة : موضع بديار بني طيء — وموضع آخر قرب الحيرة . انظره في (معجم البلدان لياقوت) .

« كان رجل يكنى أبا الخيبرى مرّ فى نفر من قومه بقبر حاتم . فنزلوا قريباً منه فبات أبو الخيبرى ينادى : يا أبا الجعداء ، اقْرِنا ، اقْرِنا ! فقال له أصحابه : ويحك ، ماتكلم من رِمَّةٍ بالية ! فقال : إن طيئًا تزعم أنه لم ينزل به أحد إلا قراه .

«وناموا . فلما كان آخر الليل قام أبو الخيبرى ينادى : واراحلتاه ! فقال له أصحابه : ما بالك ؟ قال : خرج حاتم من قبره بسيفٍ فعقر ناقتى . فقالوا : كذبتَ ، وعمدوا إلى ناقته من بين نوقهم فرأوها مجدلة لا تنبعث ! فقالوا : قد والله قراك ! وظلوا يأكلون من لحمها يومهم ثم ركبوا وأردفوه وانطلقوا ، فإذا براكبٍ بعيراً يقود آخرَ ، فقال : أيكم أبو الخيبرى ؟ فقلنا : هو ذا ، فقال : أنا عَدِىُّ بن حاتم (١) ، وإن حاتماً جاءنى الليلة فى النوم وذكر شتمك إياه ، وأنه قراك وأصحابك براحلتك ، وأنشد :

أبا خيبرى وأنت امرؤ ظلومُ العشيرة شتّامُها
أتيتَ بصحبِك تبغى القِرى لدى حفرة صَدَحت هامُها

---

(١) عدى بن حاتم : الطائى ، أدرك الإسلام ووفد على الرسول صلى الله عليه وسلم مع بنى طيء . راجع (الجزء الرابع من السيرة النبوية لابن هشام)

أيُبغَى لك الذمُّ عند المبيـ ـت وعندك طيٌّ وأنعامها ؟
فإنـا سنشبع أضيافنـا ونأتى المطىَّ فنعتامهـا

وقد أمرنى أن أحملك على بعيرٍ مكان راحلتك . فدونكه ! »

وفى ذلك يقول سالم بن دارة الغطفانى يمدح « عدى ابن حاتم » :

أبوك أبو سبّاقة الخيرِ لم يزل
لَدُنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبا
قرى قبرُه الأضيافَ إذ نزلوا به
ولم يَقْرِ قبرٌ غيره الدهرَ راكبا

الفجر الصادق

ثم شاء الله أن يجعل من بعض بقاع هذه الجزيرة مهداً لخاتم الأنبياء ، ومنزلا لرسالة عظمى ، ومعجزة كبرى باقية على الزمان ، فإذا شعاع من النور ينبثق من بين شعاب « مكة » وأباطحها ، مبشراً بفجر صادق ينسخ ليل الجزيرة الذى امتد وطال ، وإذا صوت الرسول العربى يهتف عالياً من غرب الجزيرة : الله أكبر . . !

فتتداعى الأصنام أمام هتافه ، وينتثر حطامها على أرض الحجاز تحت موطئ المصطفى الداعى إلى التوحيد .

وأبلغ الرسول رسالته . فكان أول ما أوحى إليه منها :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذى علَّم بالقلَم . علَّم الإنسان ما لم يعلم » .

فأصغت الدنيا مبهورة ، وقد راعها أن تكون أول كلمة من رسالة السماء التى حملها النبى الأمى إلى العرب الأميين .

اقرأ . . . .

وأن يكون بدء اليقظة من الجاهلية الجهلاء « آية الإنسان والعلم » ينزل بها الوحى من الله : « الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

وتكون يقظة واعية ، تُذهل الدنيا ، وتدفع بهذه القلة المؤمنة من العرب البُداة الجفاة ، أبناء الجزيرة المجدبة الماحلة ، الأمية الجاهلة ، إلى عروش الامبراطوريات العريقة ، وتورثهم فى فترة قصيرة لا تكاد تبلغ عمر فرد واحد ، تيجان الأباطرة والملوك ، من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وفراعنة النيل . . .

ولم تكد الدنيا تفيق من ذهولها ، حتى كان أبناء الصحراء يطوون الممالك من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى ، وحتى كان الهتاف الذى انطلق من حنجرة «بلال بن رباح[1]: مؤذن الرسول » غداة الهجرة . ترجّعهُ عشرات الألوف من المآذن فى شتى أنحاء الأرض ، فيستجيب لدعائه الملايين

---

(١) بلال بن رباح : صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم ومؤذنه . راجع ترجمته فى طبقات الصحابة .

من شتى أجناس البشر!

وكُتبت للغة العرب حياةٌ جديدة منذ نزل بها كتاب الإسلام الخالد ، معجزة الرسول الأمى ، فقد حماها ذلك الكتاب الكريم معه حيث سار ، ومكّن لها فى مختلف الدُّنَى وبعيد الأقطار . فإذا قصائد البدو الرعاة ترددها الألسن فى المشرق والمغرب ، وإذا أحاديث الفتيان فى مسامر الجزيرة بدروب الصحراء ، تغدو تراثاً فنيًّا تعتز به دول وشعوب ، من مشرق ومغرب . .

ويظل القرآن الكريم يحمى وجود الأمة الإسلامية ويرهف وعيها ويضيء مسراها فى ظلمات المحن . ويهدى خطاها على امتداد الزمان والمكان ، بنور الحق والخير والعلم والحكمة :

« هو الذى بعث فى الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإنْ كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مبينٍ »

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

ومضت قرون قاربت أربعة عشر ، وملايينُ المسلمين يستقبلون المسجد الحرام فى « أُم القرى » خمسَ مرات فى اليوم ، وعشراتُ الألوف منهم يحجون إليها كل عام ، هاتفين من أعماق قلوبهم :

« لبيك اللهم لبيك . . .

« لا شريك لك لبيك . .

لكنهم ما كانوا يجاوزون الحجاز إلى نجد ، أويتخطون أطراف الجزيرة إلى الدهناء . .

وبقيت الصحراء خلال تلك القرون قائمة هناك ، بكل صمتها العميق وسرِّها المرهوب ، تتراءى وراء أسوار من الجبال الصخرية والتلال السود القائمة على ساحلها الغربى ، وتمتد إلى الخليج العربى فى عزلة موحشة ، لا تعرفها الدنيا وإن آمنتْ بدينها وبايعتْ نبيها ونطقت بلسانها واعتزت بلغتها . . .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى طوائفَ من البدو الرحل ، يهيمون فى أرجائها ملتمسين مواقع الغيث ومنازل

المطر . وإن ظلت المدارس والجامعات فى أعرق عواصم العالم وحواضره الكبرى ، تدرس أدب الصحراء وتُعلم طلابها قصائد الشعراء الجاهليين البداة ، وتقف بهم على ما وقفوا عليه من أطلال[١] . . .

وتحكى لهم مغامرات الصعاليك وملاهى الفتيان ، وتحدثهم عن نارحاتم وناقتى طرفة[٢] والبسوس ، ووقائع مهلهل[٣] وعنترة[٤] ، وتكاد تسمعهم رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شد الرحال .

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ

من منادٍ ، ومن مجيب ، ومن تصـ
ـهال خيل ، خلال ذاك رُغاء

---

(١) امرؤ القيس : بن حجر الكندى ، الأمير الشاعر المشهور ، من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية . انظر (طبقات الشعراء لابن سلام ، وديوان امرىء القيس) .

(٢) طرفة بن العبد ، من شعراء المعلقات فى الجاهلية . وأكثر أبيات معلقته فى وصف ناقته . والبسوس : خالة جساس بن مرة ، كانت لها ناقة مشئومة قتلها كليب سيد بنى ربيعة ، فقتله جساس ، وشبت الحرب بين بكر وربيعة .

(٣) مهلهل بن ربيعة : أخو كليب والآخذ بثأره .

(٤) عنترة بن شداد : العبسى ، من شعراء المعلقات . جاهلى فارس شجاع .

بقيت الجزيرة — فيما عدا أطرافها — نائية مهجورة ، غامضة محجّبة ، لا تريد أن تتصل بالدنيا أو تبيح حماها لغير أهلها من الأعراب البداة ، قد آثرت العزلة على الاتصال بالحياة ، وأقامت صحاريها الواسعة ورمالها التى لا يدركها الطرف ، أسواراً منيعة تحمى تقاليدها وأعرافها وأسلوب حياتها ، غير مستجيبة لتطور الدنيا ولا مكترثة لسير الزمان .

وأستعير هنا كلمة « ر . ف . بودلى » فى كتابه[1] (الرسول) فأقول : لو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقعة من الجزيرة لما وجد ما يثير دهشته : سيجد العرب فى خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون ، سيجد كل شىء فى مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ، ومظهرهم الجسمانى لم يتبدل » .

ولقد جدّت على العالم من وراء أسوار الجزيرة ، أحداثٌ جسام غيرت وجه الحياة ، وتنقل الناس من عصر البخار ، إلى عصر الكهرباء ، ثم إلى عصر الذرة . . . من عصر الناقة ، إلى عصر القاطرة ، إلى الباخرة ، إلى الطائرة ، والجزيرة فى عُزلتها الصامدة تتحدى كل تغيير ، وتمتنع على كل تطوّر ،

---

(١) ترجمه إلى العربية ، الأستاذان محمد محمد فرج ، وعبد الحميد السحار .

وتترامى صحاريها الثلاث : الدهناءُ ، والنفودُ ، والربعُ الخالى[١] . حدًّا فاصلا بين عالم اليوم . وبين تلك الصورة الباقية من أقدم عصور التاريخ .

حياة بدائية . فطرية . لا تختلف فى شىء عن تلك التى عرفتها العرب البائدة منذ عهد موغل فى القدم ، ممتد إلى ما قبل التاريخ . . .

بحار من الرمال الناعمة ، تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحل الرعاة ، للمطر الشأنُ الأول فى حياتهم ، فهو حديث النامس ، أمرائهم وسوقتهم ، « وسؤال القادم يبدأ بالمطر والمرعى ، ومن يعيش فى بلاد العرب يعرف الأثر العظيم الذى يحدثه المطر ، والتعاسة التى يسببها تأخره ، فأهل نجد لا يأبهون لشىء إذا رزقهم الله المطر تحيا به زروعهم وحيواناتهم ، وتشملهم السعادة بكل معانيها . . . »[٢]

« أما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة

---

(١) الدهناء صحراء شرق نجد ، والنفود شمالها ، والربع الخالى جنوبها .

(٢) السيد حافظ وهبه : جزيرة العرب ـ ٥٢ .

واحدة كل ثلاث سنوات أو أربع »[١] . .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ؛ وربما عرضت لهم فرصة الحياة الناعمة فى حضر ، فأبوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة المضنية ، الخشنة الجافية ، تلك التى تقصر الأجل لكنها تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . . . .

وشهد الزمان عجباً من العجب : شهد المصريين فى وادى النيل غيرَ بعيدٍ من الضفة الغربية للبحر الأحمر ، يشيدون المعابد الشامخة ، والمقابر الصامدة ، والمساكن الراسخة ، منذ آلاف السنين . وعلى الضفة الشرقية من هذا البحر ، بَدَاةٌ رحَّلٌ ، لا يعرفون غير الخيام ، ولا يفهمون — فى القرن العشرين — فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية : « حتى[٢] إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين ، فى الثورة العربية ، إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف[٣] .

---

(١) جزيرة العرب : ٦ .

(٢) جزيرة العرب : ص ١٣ .

(٣) الملك الحسين : الشريف الهاشمى ، كان ملك الحجاز حتى انتصر عليه النجديون بقيادة « عبد العزيز آل سعود » عام ١٩٢٥ . والملك حسين هو أبو المغفور لهما فيصل الأول ملك العراق ، وعبد الله ملك الأردن .

والطائف : بلدة فى ثقيف ، على بعد ١٢ فرسخاً من مكة . طيبة الهواء عذبة المياه معشبة الرياض . راجع معجم البلدان لياقوت .

نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة. وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعند ما أسكنت الحكومة بعض القبائل فى ثكنة جرول ، اكتشفت أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب » .

وحين كان المنطاد « جراف تسبلين » يحلق فى أفق مصر عام ١٩٣٠ ، والطائرات تغدو فى سماء الوادى وتروح منذ صدر هذا القرن ، كان عرب الجزيرة يرون التلغراف اللاسلكى من صنع الجن ، ويشفقون على عاهلهم الملك عبد العزيز من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان ، الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكى !

كتب[1] « الأستاذ حافظ وهبة : الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بلندن » : أن جلالة الملك أوفده للمدينة — عام ١٩٢٨ — مع عالم من علماء نجد : للتفتيش الإدارى

(١) جزيرة العرب : ٣٠٨ .

والدينى ، « فجرى ذكر التلغراف اللاسلكى وما يتصل به من المستحدثات ، فقال الشيخ : لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقة أن التلغراف اللاسلكى لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ، ويُذكر عليها اسم الشيطان ! ثم أخذ يذكر لى بعض القصص عن استخدام بنى آدم للشيطان ، ولقد كان شرحى لنظرية التلغراف اللاسلكى وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ ، فلم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُّ على مضض . . .

« وفى يوم من الأيام ، دعانى الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة عم الرسول ، عند أُحد [1] . . . وفى أثناء الطريق أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكى ، وهنا سأل الشيخ : لماذا وقفت السيارة ؟ فأجبته : لترى التلغراف اللاسلكى ، فإن كان هنالك ذبائح ودعوةٌ لغير الله ، فإنى

---

(١) حمزة : ابن عبد المطلب بن هاشم ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم . قتل شهيداً فى معركة أحد بين المسلمين والكفار من قريش ، بتحريض هند بنت عتبة ، زوجة أبى سفيان وأم معاوية . راجع (السيرة لابن هشام ١٦/٣ وطبقات الصحابة) .

وأحد : جبل قرب المدينة المنورة من الشمال ، وبه سميت معركة أحد . راجع (الطبرى ، حوادث سنة ٣ هجرية ، والجزء الثالث من السيرة النبوية لابن هشام) .

سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود ، وقد يكون الملك مخدوعاً فى أمر هذه التلغرافات ، وتُذكر له الأشياء على غير حقيقتها . فقال الشيخ : بارك الله فيك .

« فدخلت المحطة . وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها ، ثم أراه العامل طريقة المخابرة ، وفى دقائق تبودلت المخابرات والتحيات بينه وبين جلالة الملك فى جُدة[1] .

« كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاة للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات . ولكنه ظن أنى ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك ، فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . . » .

« وعند ما وضعت الآلة اللاسلكية فى الرياض[2] واستُعملت ، كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو

---

(١) جدة : ميناء مكة على ساحل البحر الأحمر . راجع (معجم البلدان لياقوت ٣ / ٦٧) .

(٢) الرياض : كبرى حواضر نجد ، وعاصمة المملكة السعودية .

الحد بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائحُ تقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً .

« وقد أخبرنى عامل المحطة بأن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر ، لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل فى عمله ، وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون هذا السر . . . »

ولم تكن السيارات ولا الدراجات ، أسعد حظاً من اللاسلكى. فركوب الدراجة — وتسمى بلغة نجد . عربة الشيطان أو حصان إبليس — كان حتى عهد قريب ، إثماً ومعصية ، فهى بدعة ، تسير بقوة السحر وعمل الشيطان . بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان الإخوان يرون من حقهم — أو من واجبهم الدينى — منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث فى نجد ، منذ أقل من قرن ، أن أول ساعة دقاقة كُسرت عمداً ، وعُدّت من عمل الشيطان. ولم تكد بدعة الساعة

تنتشر . حتى قامت قيامة الإخوان من شيوخ نجد ، منكرين استعمالها . معلنين « أن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » . حتى اضطر أحد المشايخ – الشيخ سعيد بن سحمان – إلى أن يرد عليهم فى رسالة كتبها عام ١١٣٤هـ : ١٩١٦م وطبعت فى مصر عام ١٩٢٣ .

المعركة الكبرى

« من اليوم سنحيا حياة جديدة »
الملك عبد العزيز

فى مثل هذه العزلة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من سكان بادية الجزيرة يعيشون فى معقلهم وراء الأسوار . يشهرون السلاح فى وجه كل تطور ، ويدفعون المنكر بالسيف .

وكانت تلك هى المعركة الكبرى التى خاضها المغفور له ، الملك عبد العزيز آل سعود . .

وأسميها المعركة الكبرى ، وإنى لأذكر ما يملأ تاريخ الملك من معارك جسام ، كتلك التى انتزع فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « ابن الرشيد »[1] وكان جيش عبد العزيز الذى

---

(١) محمد بن الرشيد ، كان شيخ قبائل شمر شمالى نجد ، ثم طمع فى « الرياض » عاصمة نجد أيام عبد الرحمن آل سعود . وما زال حتى استولى عليها عنوة بعد معارك عدة ، وظلت خاضعة له إلى أن استردها المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

راجع كتاب (عاهل الجزيرة) للأستاذ عبد الرحمن نصر ، ص ١٢ وما بعدها .

هاجم به معقل عدوه وظفر بعاصمة نجد . حفنةً من الرجال عدتهم أربعون رجلا ، أبقى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم ، في خمسةَ عشرَ رجلا من صحبه ، عامل « ابن الرشيد » في حصنه ، وبين جنده وحرسه ، فما انتصف النهار حتى أذن المؤذن : أن الحكم لله ثم لعبد العزيز ، وأن عجلان – عامل ابن الرشيد – قد قتل . . .

وكتلك المعركة الأخرى التي لقي فيها عبد العزيز ، الملكَ الشريف حسين ملك الحجاز ، عام ١٩٢٥ . فهزم جنده في الطائف ثم دخل مكة ظافراً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، فجدة : آخر معقل للأشراف . . .

أذكر هذه المعركة وتلك ، ومثلهما معهما ، لكني مع هذا أسمي حركة الإصلاح « المعركة الكبرى » ، لأن الملك عبد العزيز كان فيها يلقى إخوانه ، وعشيرته ، وحلفاءه ، ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وحليف !

إنه يقف الآن وجهاً لوجه أمام « الإخوان » النجديين ، الذين انتصر بهم على أعدائه ، والذين قالوا له عندما تردد في قتال الأشراف : « يا للعجب ! أليسوا محاربين لنا ؟

أليس كبيرهم يحول بيننا وبين أداء فريضة الحج ؟ فما بال ابن سعود يأمرنا بالكف عنهم ؟ وما له وما لنا ؟ إننا نقوم بفريضة الجهاد ، فمن عاش رجع غانماً ، ومن مات لقى ربه شهيداً وهو عنه راض » .

وهم هم الذين اندفعوا نحو الحجاز راضين متحمسين ، فما زالوا يحاربون حتى النصر . . .

والآن وقد دانت الجزيرة لسلطان عبد العزيز ، يخوض معركته الجديدة أمام « الإخوان » وهم جنده وأنصاره وحلفاؤه . .

ومثل هذه المعركة لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هى أدوار تتعاقب ونضال يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن ينتفع بأحد المخترعات الجديدة ، أو يعترف بما استحدث العلم من أجهزة وآلات . .

وقد ظل الملك فترة طويلة ، متردداً بين رغبته فى الإصلاح وبين مسايرته للإخوان . وصابرهم أمداً وهم يتمادون فى إنكار كل إصلاح ، فيسايرهم حيناً ، ويحاول إقناعهم بالحجة حيناً آخر ، كاظماً غيظه .

أراد جلالته أن يمد سلكاً تليفونياً بين « مكة » وبين معسكره

فى « جُدّاء » والمسافة بينهما تقطع فى ثمانى ساعات ذهاباً وإياباً على ظهور الخيل والإبل السريعة ، لكنه اضطر إلى أن يرجئ المشروع ، كيلا يهيج ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنه منكر تجب إزالته » .

ثم عمد إلى ملاينتهم ومحاولة إقناعهم بالحجة ، فدعا زعماءهم إلى مؤتمر « بالرياض » فى يناير ١٩٢٧ ، واستصدر من علماء نجد الفتوى المشهورة :

« أما مسألة البرقى فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزمُ بالإباحة أو التحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته ».

لكن الإخوان تمادوا فى ثورتهم على الإصلاح ، إلى حدٍّ دفع الملك إلى اصطناع الحزم فى حديثه معهم . حدّث جلالته : « أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : يا طويل العمر . لقد غشّك من أشار

عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن فيلبي [١] سيجر علينا المصائب ... » فقال لهم الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست ولله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع . . وما " فلبي " إلا تاجر وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . . . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لاتدعونى أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هنالك من دليل أو سُنَّة يمنع من إحداث اللاسلكى والسيارات » .

غير أن هذا لم يحسم النزاع . « فلقد نال بعضُهم الإمام بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال إلى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل ما لا يتفق وهواهم ... حتى كادت تقع

---

(١) فلبى : سانت جون ، كان ضابطاً سياسياً فى دار المندوب السامى ببغداد ، أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود عام ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرق دائرة بين الترك والإنجليز . وقد أسلم فلبى وسمى باسم عبد الله .

(انظر كتاب عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها) .

فتنة أهلية بين الإخوان من جهة ، وبين الحكومة والحضر من جهة أخرى . فجرد العاهل جيشاً من طلبة العلم المتفقهين فى دينهم، وأرسلهم إلى الإخوان كى يصلحوا ما أفسد الأولون ! »

وبلغ الأمر مداه ، وعيل صبر الملك. فأرسل جنده فى مستهل عام ١٩٣٠ ، لتأديب العصاة الذين طغوا وعاثوا فساداً باسم الدفاع عن الدين ، وجىء بزعيم العصاة ، الدويش[١] ، بعد معركة « أم الرضمة» فى سيارة إلى خيمة الملك . فكانت اللعنات من أتباعه الأسرى تُصَبُّ عليه بسبب ركوبه السيارة .

وكان مما قاله الأسير يومئذ :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلت كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار ، فحملونا إليك فى طيارة من طياراتهم ، ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعد ما كنت عزيزاً محترماً » .

---

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على ابن سعود عام ١٩٢٩ وظل يقاتل مستبسلا ، حتى إذا حاقت به الهزيمة ، هرب إلى الكويت وسلم نفسه للدورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز . راجع كتاب (عاهل الجزيرة) ص ٢٢١ : ٢٢٨ ط مصر .

ولقد عدّ بعض الكتاب ، معركة « أم الرضمة » وما تلاها من استسلام الدويش للملك عبد العزيز ، « من المعارك الفاصلة بين الفوضى والنظام » كما عدّوا نصر الملك فيها على الإخوان : « نصراً للتقدم على الرجعية » .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها بعد النصر :

« من اليوم سنحيا حياة جديدة » .

* * *

لكن الواقع أن « تحضير البادية » ، لم يكن ليتم باستسلام هذا الثائر أو النصر على ذاك المتمرد ، ولا كان بحيث يتقرر فى هذه المعركة أو تلك ، وإنما هو النضال المستمر المتحفز ، يتجدد مع كل « بدعة » من مستحدثات العلم ، وقد يكمن فترة ، ليعود بعد حين أعنفَ وأحدَّ . . .

والذى حدث بالفعل بعد هزيمة الإخوان ، أن حركة التعمير والإصلاح سارت بطيئة فى وجه مقاومة قوية من الأعراف والعادات ، والتقاليد ، والإلف ، والتشبث بموروث الأوضاع ، والتعصب لعزلة الجزيرة . ولقد أعلن الملك عبد العزيز بدء « الحياة الجديدة » فى يناير ١٩٣٠ ، ومع ذلك ظلت البادية تنظر فى ريبة وحذر إلى كل حركة من حركات

التحضّر ، وتحاول أن تدفع منكرات « البدع » باللسان أو القلب ، بعد أن أعجزها دفعُها باليد . . .

وبدا كأن الصحراء فى حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حدًّا لهذه الحرب الخفية المستمرة ضد العلم ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته فى إصلاح حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذرة ، المهددة أبداً بهجوم مضاد من الرجعية ، يُعيدها القهقرى مُجْهَدَةً مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت ضد المستحدثات من بدع الأجهزة والآلات ؟ إنى إذن لم أقل كلَّ الحق ، فالواقع أن النضال كان أعمق من هذا وأوسع مجالا ، وقد تجاوز البدع المخترعة إلى أسلوب العيش ومواد التعليم ، ونفذ إلى الصميم ، فى كل كبيرة أو صغيرة من حياة الجزيرة . .

وقد ذكرت آنفاً ، كيف « نال بعضهم الإمامَ بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال » ! ولنا أن نتصور مدى ما كان يحتاج إليه « المصلح » من جهد ، ومن وقت ، لكى يتغلب على

قوم ضجوا لأن المدارس تريد أن تفتن التلاميذ عن العلم ، وما العلم الحق فى رأيهم إلا « التفسير والحديث والفقه وعلم العربية والتاريخ الإسلامى » . وكان من مظاهر هذه الضجة ، أن « اجتمع علماء الدين من النجديين عام ١٩٣٠ ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم أصدروا قراراً يحتجون فيه على إدارة المعارف فى مكة لأنها قررت فى برنامج التعليم : الرسم ، واللغة الأجنبية ، والجغرافيا » .

ولم ير جلالة العاهل من الحكمة أن يمضى فى سبيله غير مكترث بضجة العلماء ، بل بعث رسولا إلى « كبار المشايخ » ليجلو لهم الأمر ، ويبحث معهم فى شأن هذه المسائل التى طلبوا إلغاءها من برامج التعليم .

وقال قائلهم :

« لقد بَيَّنَّا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً ، وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا . وأما الجغرافيا ففيها كرويةُ الأرض ودورانُها ، والكلام على النجوم والكواكب ، مما أخذ به

علماء اليونان وأنكره علماء السلف ! » .

والذى يلفتنى من هذا ، هو أن الثورة على تدريس الرسم والجغرافيا بمدارس الجزيرة ، حدثت بعد هزيمة « الإخوان » الرجعيين ، واستسلام « فيصل الدويش » ، فهل عدوت الحق حين قررت أن معركة « أم الرضمة » بين الملك عبد العزيز والإخوان ، لم تكن حاسمة ولا فاصلة ، بين الرجعية والتجديد ؟

لقد كان علماء نجد يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، « وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء أن يصرفوا أعمارهم فى الرد على مخالفيهم من الطوائف ! »

ولأجل هذا أرادوا أن يُشغل إمامهم عبد العزيز بالدفاع عن مذهب الوهابيين ، والجهاد فى سبيل نقاء العقائد الإسلامية من شوائب أهل البدع ، وحماية الجزيرة من كل عنصر دخيل . . .

* * *

هكذا مضت الأعوام ، والحجاز ، فى طرف الجزيرة الغربى ، مقصدُ الحجاج من شتى بقاع الأرض ، ومهوى أفئدة المسلمين فى كل مكان .

والجزيرةُ من ورائه تناضل عن عزلتها ما استطاعت ، وتقاوم الجديد ما وجدت إلى المقاومة سبيلا . . .

ولم يكن أحد يتوقع أن سيجيء يوم يدوى فيه اسمها فيسمع له رنين أقوى من رنين الذهب ، وتتكشف الفلاة الموحشة المهجورة عن كنز ثمين مطمور تحت الحصا والرمال . . .

وجهاً لوجه
فى قلب الصحراء !

كانوا أشبه بفريق من المغامرين ، نزحوا من العالم الجديد منذ نحو ثمانية عشر عاماً ، ونصبوا خيامهم بين جبال لنهدين والظهران[١] على حافة الربع الخالى .

هناك . . حيث لا ظل ولا ماء، وإنما هو المَهْمه القَفْرُ يمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، رهيباً ، ماحلا ، كئيباً ، تتلوى خيوط الرمال فوق أديمه كأنها الثعابين، وتعوى الريح على أعالى قِممه وكثبانه : فتجاوبها من السفوح والقيعان شتى الأصداء كأنها عزيف الجان . .

نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء المتوهج يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة تخلع الأفئدة ، قد هجروا الأهل والولد ، ونبذوا ترف أمريكا وراء ظهورهم فى سبيل

---

(١) جبال النهدين والظهران : مرتفعان فى الجنوب الشرق من نجد ، قرب ساحل الخليج الفارسى ، على حافة الربع الخالى .

الكشف عن منابع للبترول ، قد تكون مطمورة فى بقعة ما من هذه الفلاة الموحشة . . .

وكان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، فى شتاء عام ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت فى الشمال الغربى من الجزيرة ثم مضوا عن الصحراء يائسين بعد أن أذابو فى رمالها الملتهبة أكداساً من المال ، مختلطة بالعرق المتصبب والجهد الضائع ، فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون التجربة الخاسرة بأمل جديد .

وكانت منطقة «الأحساء»[1] وجهتهم هذه المرة ، فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة : موفدين من قبل شركة « ستاندرد أويل كومبانى أوف كاليفورنيا » وهى الشركة الوحيدة التى قبلت — بعد لأى — أن تتبنى هذه المغامرة ، وأن تدفع ثمنها الباهظ ، فى سبيل « كنز » مجهول .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر عام ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى « الظهران » بعد توقيع اتفاقية الزيت مع مندوبى الحكومة السعودية ، وجاء معه بالآلات والرجال لمباشرة التنقيب

---

(١) الأحساء : منطقة منخفضة شرقى نجد والدهناء ، وفيها تقع منطقة البترول .

التمهيدى . وبدأ الحفر فعلا فى آخر أبريل سنة ١٩٣٥ . . .

* * *

عكفوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، ينقبون ويبحثون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يُجمِّد الدم ويثلج البدن ، منقطعين عن الدنيا بعيدين عن العمران ، يحيط بهم الخراب الموحش من كل جانب ، وترمقهم عن كثب عيونٌ حديدة البصر نافذة النظرات ، تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتياب . . .

تلك هى عيون العرب البداة الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح . .

* * *

خمس سنوات من الجهد المضنى والحياة الكادحة ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات قبل أن تبيح لهؤلاء المتعبين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم بلحظة من راحة واستقرار .

خمس سنوات قضاها أبناء « العرسام » فى مجاهل الجزيرة يحفرون البئر بعد البئر ، وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء

ضنينة بسرها ، مناضلة عنه ، لا تقدم لضيوفها الغرباء إلا القيظ والزمهرير ، وإلا الصخور والرمال ، والوحشة والملال ولا تكف عنهم ملاحقة حُرَّاسها الغلاظ الأشداء ، الذين روعهم أن تطأ أرضَ الجزيرة قدمُ كافرٍ ملعون ! . . .

لكن الباحثين عن البترول ، كانوا يدركون أن عدوهم الألد هو اليأس ، ومن ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . .

أما التعب ، وأما الملل ، وأما خشونة العيش وقسوة الحياة ، أما كل هذا فداخل فى الحساب .

وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا أنهم ملاقون هذا كله ومثله معه ؟

* * *

وأبى عليهم إصرارهم ، أن يستسلموا للهزيمة بعد فشل التجربة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة . . .

وأكبّوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة . . .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جبروت العلم مع جبروت الصحراء ، فتم النصر للأول . . .

هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كنزها لمن دأبوا على البحث عنه فى عزيمة لا تُفَلّ ، وإرادة لا تخذل . . .

وتمت المعجزة فى صحراء الجزيرة التى أصغت منذ نحو أربعة عشر قرناً إلى آية الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق »

فسبّحت باسم الله الذى « علم الإنسان ما لم يعلم » . . .

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة ، فأذاع البرق فى اليوم الثانى عشر من مارس ، سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر منتجة للبترول فى « الظهران » ، ثم توالت الأنباء من بعد ذلك ، معلنة عن اكتشاف آبار أخرى فى « بقيق » على بعد ٣٧ ميلا جنوب غربى الظهران ، و « أبى حدرية » على بعد ٩٥ ميلا إلى الشمال ، و « القطيف » على ساحل الخليج.

وهذا بيان بالحقول المكتشفة فى الأعوام الأولى :

الدّمّام[١] ، الظهران : اكتشف فى عام ١٩٣٨ ، ومساحته تسعة آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتان وثلاثون .

أبو حدرية : اكتشف عام ١٩٤٠ وترك مغلقاً .

بُقَيْق : اكتشف عام ١٩٤١ ومساحته ٧٧ ألف فدان . وعمقه

---

(١) لمعرفة هذه المواضع ، راجع الخريطة المرفقة .

١١ ألف قدم وعدد آباره ثمانى عشرة .

القَطيف : اكتشف عام ١٩٤٥ وعمقه ٧٣٠٠ قدم ، وآباره اثنتان .

ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود ينبثق من جوف الرمال سخيًّا دافقاً لا ينضب .

وعلى هذه الرمال الملتهبة ، تحت شمس الصحراء المحرقة ، وفى قلب الفلاة المهجورة الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت فى أنابيب تمتد أميالا إلى موانى التفريغ فى الخليج العربى والبحر الأبيض المتوسط .

* * *

ولم يكن التفريغ أمراً هيناً . . .

أما فى الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول لتحمل هذا السيل الدافق ، عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم ، ولم تستطع أن تصل إلى الساحل عند فرضة « الدمام » — ميناء الظهران — لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور . . .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل تقدم يبنى ميناء ضخمة تمتد ثمانية أميال فى عرض الماء . .

وكذلك عزّ على العلم أن تقطع حاملات البترول نحو ثلاثة آلاف ميل ، كى تصل إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس ، فى طريقها إلى الغرب ، على حين لا تزيد المسافة — عبر الصحراء — بين منابع الزيت فى « الظهران ورأس تنورة » ، وبين الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، على ألف وسبعين ميلا ...!

ومُدَّ خط من الأنابيب من شرق الجزيرة، متجهاً شمالا بغرب إلى « تل » الخبر بالقرب من حدود الأردن ، ومواصلا سيره فى نفس الاتجاه عبر الأردن وسوريا ، إلى « ميناء » صيدا على ساحل البحر المتوسط !

ويبلغ قطر الأنابيب فى هذا الخط ثلاثين بوصة ، وقد صنعت بحيث تحتمل الامتداد والانكماش الناتجين عن اختلاف درجات الحرارة . . .

ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء يومياً، ثلاثمائة ألف برميل (١)

* * *

(١) من شاء أن يعرف مزيداً عن حركة البترول فى هذه المنطقة فليراجع كتاب (المملكة العربية السعودية : تأليف كارل تويتشل ، وترجمة السيد شكيب الأموى) طبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم ، وسجلت الإحصاءات الرسمية وثبة الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل عام ١٩٣٩ إلى خمسة ملايين عام ١٩٤٠ . ثم إلى واحد وعشرين مليونا وثلاثمائة ألف برميل عام١٩٤٥ ، ارتفعت إلى ١٣٠ مليوناً وتسعمائة ألف برميل عام ١٩٤٨ !

وما تزال هناك آبار مغلقة لم تستغل بعد . . .

وتدفقت الثروة مع الزيت ، فإذا بالصحراء المجدبة القاحلة تجود بملايين الجنيهات كل عام، يذهب نصفها إلى المملكة السعودية مالكة الصحراء ، ويبقى النصف الآخر لشركة « أرامكو » صاحبة الامتياز .

وآن للمغتربين المتعبين أن يظفروا فى تلك الفلاة الكئيبة الموحشة بحياة لا تقل عن حياتهم الأولى فى أمريكا رغداً وترفاً، ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة ، قطعة من أمريكا .

* * *

ولكن . . .

هل خف الصراع بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ؟ . . . كلا . . . إنه باق هناك محتدم ،

وإن لم يبد كذلك ! ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم هناك . . .

فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الغرباء بنظرات مرتابة ملؤها الشك والحذر : نظرات ساهرة تحرس تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، وتحمى إيمان البدو من سحر الغزو . . .

ولا تكاد لحظة تمر، دون أن تُذكِّر الجزيرةُ هؤلاء الغرباء بأنهم أجانب دخلاء ، جاءت بهم ضرورة اقتصادية تقدر بقدرها ، ولا يجوز لهم أن يتخطوا الأسوار التى حاول بها عاهل الجزيرة أن يصد تيار الغزو ، وأقام عليها الحراس الأشداء ...

وهى أسوار تسمح للمدنية الغربية أن تعمر الصحراء ، وتستجلب لها ما شاءت من مستحدثات الأجهزة والآلات ، لكنها لا تسمح بتسلل عنصر دخيل ، يفسد أصالة العربى ، أو يمسخ تقاليده ، أو يستعمر أرضه :

فلا بأس على الجزيرة مثلا ، إذا هى استوردت أحدث الطائرات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن بإطلاقها فى سمائها إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومى الإسلامى :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . .

* * *

فى حدود هذه الأسوار ، يعيش الأجانب فى شبه عزلة ، لهم أحياؤهم الخاصة بمدارسها وملاعبها ومطاعمها وأنديتها ومستشفياتها ، لا يكاد يسمح لهم بأن يندمجوا فى أهل البلاد خارج منطقة العمل . . . .

ويوم العطلة هناك هو يوم الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .

والتقويم الهجرى هو السائد فى مصانع « أرامكو » ومعاملها ومكاتبها بالصحراء ، كما هو سائد فى الحجاز ونجد .

والتوقيت العربى هو التوقيت الرسمى ، أى أن الشمس تشرق فى الساعة الواحدة ، وتتوسط كبد السماء فى الساعة السادسة ، وتغرب فى الساعة الثانية عشرة !

ويحرم على الكنائس أن تقام فى أرض العرب ومهد الإسلام ، كما يحرم على النواقيس والأجراس أن تدق فى أفق الجزيرة ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام منذ نحو ألف وأربعمائة عام .

ولا يؤذن لأى قسيس أن يطأ أرض الجزيرة ولو لضرورة مؤقتة كعقد زواج ، فمن شاء من المسيحيين أن يتزوج ، كان عليه أن يرحل إلى الخارج ليعقد إكليله — فى البحرين

مثلا — ثم يعود بعروسه إلى الجزيرة .

وغير مباح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمور أو لحم الخنزير ، كما لا يباح « للكانتين الأمريكانى » أن يعرض للبيع مثل هذه المحرمات .

والويل لرجل الشرطة الذى تقع فى منطقته أدنى مخالفة لهذه القوانين .

* * *

هكذا فُرِض على الأمريكان ، أول عهدهم بالجزيرة ، أن يعيشوا هناك : رسلَ عمران لا دعاةَ استعمار . . .

وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن — وأنا أكتب هذا عام ١٩٥١ — أن تحمى نفسها من سيطرة الدخلاء ، وإن تركت المدنية الغربية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهربا . .

وما تزال الجزيرة تحلم بيوم يستطيع أبناؤها أن يسيطروا فيه على الآلة ، ولهذا فرضت على شركة « أرامكو » أن تنشئ فى « الظهران » مدرسة لتخريج صناع سعوديين ، يدرسون أسرار الميكانيكا والكهربا ، ثم يوفدون فى بعثات فنية إلى أمريكا ، ليكون منهم المهندسون والطيارون والخبراء . . .

ترى هل يستطيع هؤلاء المبعوثون أن يقاوموا فتنة الغرب فى

أمريكا ، كما استطاعوا زمناً أن يقاوموها فى الجزيرة ، حيث القوانين الصارمة والحراس الغلاظ الشداد ؟ !

الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى العرب بالأمريكان فى قلب العالم الجديد ، بعد أن التقوا بالأمس وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . . .

ثورة فى الصحراء

« . . . لو أن سيارة أحدثت جلبة وهى منطلقة مثيرة النقع ، ولو أن طيارة قد أزت أزيزاً فوق رأسه ، لما وجد ذلك العربى — القديم المبعوث — أية صعوبة فى أن يعزو هذه العجائب إلى الجن » . . .

ر . ف . بودلى

حملتنا الطائرة من « جدة » فى مشرق الصبح ، وحلقت بنا عالياً ثم مضت تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من نوافذها الصغيرة فى الصحراء الممتدة من تحتنا ، فلا نرى خلال أربع ساعات متتاليات ، غير التيه تتدافع أمواج الرمال فوقها ملتهبة فى وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب : يلف هذا القفر اليباب .

أربع ساعات متتاليات عبر المهمه القفر ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو متعلماً من معالم الطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرات وهى تتعثر فى كهوف الهواء !

ونظرتُ إلى رفاق السفر فى الطائرة ، فإذا فيهم نفر من

البدو قد ركبوا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط من الريح . وإن فيهم من أدرك عهد الناقة وشق أكباد الإبل فى مسيره عبر هذه الفيافى التى ظلت ، حتى أمس القريب ، مأوى للجن وملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش !

وانثنيت إلى بدوية كانت تجلس أمامى مختفية فى عباءتها السوداء ، أسألها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد من قبل ؟

فأجابت فى صوت هامس ، حرصتْ على ألا يبلغ مسامع الرجال الغرباء :

ــ بل هذى أول مرة أخرج فيها من نجد ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً . . .

قلت :

ــ فماذا ترين فى رحلة اليوم ؟

أجابت على الفور :

ــ عجب أى عجب ! إنها والله فعلة ساحر من مردة الجان ، أو معجزة وارث لملك سليمان !

ولما سألتها : أين تحط رحالها ؟ أجابت بأنها لاحقة برجلها الذى يعمل فى « الكامب السعودى » بالظهران .

فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين التعبير البدوى العريق :

« تحط الرحال » وبين اللفظ الغربى المستحدث الدخيل : « الكامب » .

وحمل لنا مضيف الطائرة لحما طريًّا وخبزاً شهيًّا وشراب الكوكاكولا والأناناس ، فأخذت أرقب صاحبتى وهى لا تجرؤ على لمس الشراب ، ظنًّا منها أنه حرام ! وكنا فى هذه اللحظة قد دنونا من الخليج العربى ، فحدقنا فيه مأخوذين ، وحامت الطائرات حول مطار « الظهران » وقد تناثرت فيه الحظائر والمبانى كأنها أعشاش الطير ، وجثمت الطائرات على أرضه شبيهة بقطع من الصخور .

ولبثت الطائرة تدرج فوق هذه الأرض بعض ساعة ، ونحن فى ذهول مستغرق ، لا نكاد نصدق أننا عبرنا الصحراء ما بين « جدة » على البحر الأحمر ، و « الظهران » قرب الخليج ، فى ساعات ، ما بين ضحا وأصيل .

وتمثل لى آنذاك شاعرنا « طَرَفَة »[1] وهو يضرب بناقته فى « الدهناء » أياماً وليالى ، ومضيت أردد أبياتاً من قصيدته « المعلقة » فى وصف مطيته تلك الأمون الذلول ! .

هكذا من الناقة إلى الطائرة فى وثبة واحدة ؟ .

---

(١) طرفة : بن العبد .

هكذا من الهودج إلى « صالون داكوتا وبريستول » ؟

هكذا من ماء الأمطار والعيون ، إلى شراب « الأناناس والكوكاكولا » ؟ ! .

يا لها من وثبة عاتية ، لم تمر بمراحل التطور التى مررنا بها ، فما عرفت الدهناء من قبلُ العربةَ أو السيارة ، ولا رأت — حتى اليوم — قطاراً يجوس خلالها ويمرق بين كثبانها ووهادها ! .

* * *

وكان مقامنا « بالظهران » فى غرفات فخمة ، مضاءة بالكهربا ، مزودة بالماء الساخن والبارد ، لا نرى فيها شمساً ولا زمهريراً ، وإنما هو الجو اللطيف المنعش ، قد كيّفه القوم حسبما أرادوا ، فإذا بنا نعيش فى جنة ، وليس بيننا وبين الصحراء بقيظها وسمومها ، سوى جدار بسيط تسفعه السافيات وتلطمه الهبوب .

أية ثورة ؟ ! وأى انقلاب ؟ !

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العُمُد والأوتاد ، ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ، وماء المطر ، ولحم الإبل ، واللبن التمر ،

أما الغرفات المبنية ، والنعم الطيبة ، فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون يومئذ « فى الغرفات آمنون » « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » « وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

إنها الثروة الطارئة ، بثت الحياة فى ذاك الخراب ، وحولت ذلك التيه المخوف إلى ما نرى . . .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعَل حمراء ساطعة الذوائب ، تضىء هذا الظلام مؤذنةً بانبثاق عهد جديد فى الدهناء التى طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومُذكرةً بنار القِرى التى كان « حاتم الطائى » يأمر غلامه أن يوقدها على جبال طيئ وكثبانها وهو يرتجز :

أوقدْ فإنّ الليل ليلٌ قرُّ
والريح يا غلامُ ريح صَرّ
علّ يرى نارَك مَن يمرّ
إن جلبتْ ضيفاً ، فأنت حُرّ

وهذه أضواء الكهربا تنبث بين كثبان الرمال ، مبددة ظلال الأشباح المرهوبة التى طالما تنقلت بين الظهران

والنهدين ، بين الدهناء والربع الخالى . ومعلنة أن العلم قد انتصر على الصحراء كما انتصر من قبل على البحر ، وأذل شوامخ الجبال ، وسخر السحاب !

وهذه أنابيب الزيت تعترض مسيرنا هنا وهناك وهنالك ، وهى تمتد شرقاً وغرباً ، من « الظهران وبقيق وراس تنورة والدمام » ، إلى « البحرين » فى الخليج العربى ، وإلى « صيدا » على البحر الأبيض المتوسط ، عبر المياه والرمال ، مسجلة أن الإنسان قد عرف السر الخطير الذى أجنته أحشاء البيداء دهوراً ، وأزاح القناع عن منجم الذهب الأسود ، المطمور تحت أديم الصحراء ! !